

## مشكلة التعليم

حضرة صاحب المعالي أحمد نجيب الهلالي باشا وزير المعارف

الكلمة القيمة التي ألقاها معاليه في الحفلة السنوية التي أقامتها الجامعة الأمريكية بمناسبة تسليم الشهادات لخرميجيا

سيداتي سادتي

أشكر لهذه الجامعة العظيمة دعوتها الكريمة لأتحدث اليكم في هذا اليوم المشهود من إياها في كل عام . وأنها لفرصة سعيدة حقا هذه التي تتيحها الجامعة الأمريكية لأساتذتها وطلابها ولطائفة مختارة من قادة الرأي وأهل العلم والفضل ، فتمكنهم من أن يجتمعوا هذا الاجتماع الخصب الذي يسمح لهم بأن ينظروا في وقت واحد إلى الماضي وإلى المستقبل ، ليروا نتائج الجهود التي بذت ومعالم الطريق التي قطعت وآثار العقبات التي دلت ، فيختبطوا بما كتب لهم من ظفر وما قدر لهم من توفيق في هذا الجهاد المتصل الذي ينهضون به لترقية العقول والأخلاق ، ولينظروا في الوقت نفسه إلى الطريق الطويلة الشاقة المنتدة أمامهم والتي يجب أن تقطع ، وإلى العقبات الكثيرة المنتثرة أمامهم والتي يجب أن تذلل ، وإلى الجهود الثقيلة المثلة في نفوسهم والتي يجب أن تبذل ، ليصل رفق العقل وليستمر سمو الخلق ولنمضي في سبيلنا إلى الكمال غير متواكلين ولا متخاذلين .

بالنظرة إلى ماضي التعليم تكون الفبطة والثقة بالحاضر ، وبالنظرة إلى مستقبله يقوى الأمل ويستند العزم ويعظم الاستعداد للنشاط .

فمنذ عشر سنين ثار النامس بوزارة المعارف وصاحوا بها صيحة لها دوى عظيم منادين بفشل التربية والتعليم . وانبرى طلاب الإصلاح يكتبون ويخطبون ولكل منهم برنامج كامل للإصلاح الشامل . وكان العنوان المحبب إلى كل من دعا أو كتب : ماذا أفعل لو كنت وزيرا للمعارف ؟ ومن ملح بعض الكتاب مناظرة وزير المعارف بزنجي أمريكي يدعى بوكر واشنطن (Booker Washington) أما الزنجي فقد كان خادما في منزل ، ولكنه وجد في الحياة حتى حصل حقيقة العلم وأصبح معلما . كان فقيرا لا مال عنده ولكنه كان يعلم تلاميذه في ساعات الفراغ صنع الأجر والقرميد والنجارة والحدادة . وكانوا يحضون الحطب من الغاب فيصنعون منه النوافذ والأبواب ، وبذلك شيد التلاميذ معهدهم ، ثم قام على تعليمهم تعليما حيا حرا فأصبحوا رجالا عاملين نافعين لا مجرد علماء رسميين . وعلى هذا

انتمط أنشأ بوكر عدد كبيراً من المدارس الليلية ونجح في حركته العلمية العملية فأخذوا عليه أكبر الألقاب وأصبح إماماً من أئمة التعليم . هذا رجل زنجي خلق كل شيء من لا شيء ، أما وزير المعارف في مصر فتوضع بين يديه في كل عام الملايين ولكنه لا يخلق شيئاً ويظل صوت الشعب داوياً : ” يا رحمن يا رحيم من فشل التعليم “ .

واليوم نسمع دوى هذه الصيحة حتى في بعض الأوساط الرسمية . فالتعليم الجامعي ضعيف قاصر لأن التعليم الثانوي ضعيف قاصر . وقد دعت هذه الصيحة كثيراً مسئولاً إلى التحقيق في ضعف التعليم ، تخففت كل مرحلة من تبعثها بالقائها على سابقتها ، والكبير ينزل من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصل إلى رياض الأطفال وصدق أنها هي وحدها المسؤولة عن ضعف التعليم ، فأنحى عليها باللام ، وترحل الباقون عن حضرته بسلام .

والخطأ في هذا كله اعتقاد اللائمين أن المدارس الثانوية يجب أن تخرج إخصائين في مختلف العلوم . وهي علوم لا يقدر أن يتخصص فيها رأس واحد أبداً . وقد نسوا أن التعليم العام لا يقصد به الإتهذيب العقل وتقويم الفكر وترويض التلاميذ على الحكم السليم والنظر الصحيح . ولا يتحقق ذلك إلا بتوجيه التعليم وجهة عملية تتفق مع حاجة الطالب وأعماله في مستقبل حياته ، بدلاً من تلقينه مبادئ وقواعد لا يعلم لها إلا الجن أية قيمة عملية .

ويسرني أن أقرر أن التعليم الثانوي عندنا يجري الآن على أحدث مبادئ التربية ، وأصحها من حيث تحقيق الصلة بين التعليم النظري والحياة العملية ، ولقد زرت بعض المدارس الثانوية والابتدائية فسرني ما شهدت من تقدم كبير مبشر بخير عميم . رأيت الجماعات الرياضية والأدبية والاجتماعية والعملية والفنية يعمل أفراد كل منها كما يعمل النحل في الخلية فيتعاونون وينتجون . ورأيت التلاميذ يفكرون بعقولهم ويحاولون بل يزاولون بأيديهم ، يميون مفتوحة وصدور مشروحة . ورأيت أن التلميذ لم يعد مجرد أداة استقبال يستقبل من المعلم ما يصبه في ذهنه قسراً ويحشره فيه حشراً .

وما من شك في أن طلبة اليوم خير من طلبة أمس سواء من حيث التكوين العلمي أو قوة الملاحظة أو المهارة العملية .

ولكن بعض النظريين يريدون الرجوع بالتعليم الثانوي إلى الوراء من حيث حشو الأذهان والارتكاس في كثرة وأزدحام . وقد أطبقت الأمم جميعاً قديماً وحديثاً على فساد هذه الطريقة . فقالوا إن كل علم يكثر على المستمع ولا يطاوعه الفهم أو الهضم يزداد به القرب عمى ، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب في الإبدان . قرر ذلك المأرودي

عند المسلمين كما أجمله هريو في مجلس نواب فرنسا سنة واحدة وثلاثين عند ما قال : ليس التعليم كأسا تدهق وإنما هو مشكاة تضيء . ومن قبل ذلك شرح ابن خلدون مبادئ التربية الحديثة في عبارات صريحة أرسلها الدكتور شارل واطسن مدير الجامعة الأمريكية الى الاستاذ أمير بنقار ليذمها في مجلة التربية الحديثة ، وقد شفعتها بخطاب قال فيه انه دهش كثيرا لآراء ابن خلدون الذي عاش في القرن الخامس عشر والذي احتدى بفضته ونور عقله الى الطرائق الصحيحة في التربية والتعليم .

وما من شك في أن الفضل كل الفضل في نجاح التعليم الابتدائي والثانوي وبث الروح المعنوي في المدارس إنما يرجع الى أساتذة هذه المدارس الذين يقومون بمهمتهم خير قيام مع أنهم لا يلتفتون جزاء ولا شكورا . وفي هذا لا يسع كل منصف الا أن يدعو لهم كما دعا لهم النبي الأمين " اللهم اغفر للعلمين وبارك لهم في أديانهم وأطل أعمارهم " والله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر ما يبذلون لبلادهم من عيرة واخلاص ووفاء .

### سيداتي سادتي

ليس معنى ما تقدم أن تبقى نظم التعليم ومناهجه ثابتة جامدة ، مقدسة لا تمس . بل الواجب أن تكون متحركة الى الامام مسايرة لمطالب الزمن وحاجات الوطن .

والواقع أن هذا الاجتماع الذي تتيحه لنا الجامعة الأمريكية من عام الى عام إنما هو رمز لهذه الفكرة التي تقوم عليها الحياة الإنسانية الراقية ، فكرة الطموح الدائم الى الخير والكمال والسعى المتصل الى المتل العليا .

وإذا كان الطموح في التعليم واجبا في أيام السلم فهو في أيام الحرب وبعد الحرب أوجب وأزهم . فهناك اجيال تختارها العناية الالهية لتمتحنها بالمحن الشديدة والفتن المرهقة وتفرض عليها واجبات شاقة لم تفرضها على غيرها من الاجيال ، وتأخذها بتكاليف عسيرة تحتاج الى العزم والحزم وقوة البأس وشدة المراس وحسن الاعتماد على النفس وشدة الثقة بالله . وجيلنا الحاضر من هذه الاجيال فهو يمتحن أعسر امتحان عرفه التاريخ . يمتحن في حضارته كلها في حياته المادية التي تنهار من كل وجه ، وفي حياته المعنوية التي تتهاجم من كل صوب ، يمتحن في القيم العليا التي آمنت بها الانسانية قرونا متصلة قيم العلم والخلق والدين . فلا غرابة في أن تكون الواجبات التي ينبغي أن ينهض بها هذا الجيل من أعسر الواجبات التي عرفها الناس وأثقلها حملا . وأول هذه الواجبات الصبر على المحنة والثبات للفتنة والقاذ من الخطوب والاحتفاظ بالايمان الذي يبقى على هذه القيم التي بنيت عليها الحضارة الانسانية . وما من

شك في أن أعداد الطلاب للنهوض بهذه الواجبات الثقيل هو المهمة الأولى التي يعرض على معاهد التربية والتعليم أن تنهض بها لتخرج للانسانية شبانا يؤمنون بالحق والعدل والخير ويضحون في سبيلها بكل شيء وبالحياء حين تطلب اليهم التضحية بالحياء . وليس هذا كل ما يجب على معاهد التربية والتعليم أن تنهض به من الواجبات في هذه الظروف الخرجة التي تعيط بالانسانية ، ولكنتنا في عهد تبدل عنيف وتغير خطير ، وستخرج الانسانية ظافرة من هذه الأزمة الهائلة ، ظافرة بمثلها العليا وغاياتها النبيلة السامية ، ولكن مناهج الحياة وأساليب العيش ونظم العلاقات بين الأفراد والجماعات و بين الدول والشعوب ستغير وتبدل من غير شك .

فالانسانية تختم عهدا من عهودها وتستأنف عهدا جديدا . ولا بد من أعداد الشباب ليواجهوا هذا التطور الخطير ولينهضوا بتكاليف الحياة في العهد الجديد على أحسن وجه ممكن ومن غير أن يتعرضوا للزلل وللاضطراب والتردد الذي يعرضهم لليأس ويفنطهم الى الفشل ويورطهم في الخيبة والاختناق .

ولا بد من أن تكون التربية شبانا تنسجم في نفوسهم قوة الشخصية وقوة الوطنية وقوة الانسانية بحيث تصبح نفوسهم مزاجا معتدلا من هذه الخصال كلها فلا تخضع لدعاة الشر ولا تستكين للطفاة والمستبدين ولا تؤثر نفسها بالخير من دون الذين يشاركونها في حياتها الوطنية الخاصة ولا تؤثر وطنها بالخير من دون الذين يشاركونها في الحياة الانسانية العامة .

ولا بد من تزويد النشء بما ستحدثه الحرب كل يوم ، من ضروب المعرفة و ما تفشته من الوسائل الجديدة للتطور المادى والمعنوى .

وقد تنبه رجال التربية الى ما يجب عليهم من اليقظة الدائمة والنظرة الواسعة الى ما يقع في العالم من الأحداث وبخاصة في عصر كالعصر الذى نحن فيه فقد ألغيت مسافات الزمان والمكان وألغيت الحواجز بين الأمم والشعوب وأصبح من المستحيل على بيئة أن تهمل نفسها من التأثير بما يحدث في البيئات الأخرى من خير أو شر .

فالمرءون الذين يفتطعون لأنفسهم قطعة من الزمان أو من المكان ويظنون أنهم يعيشون فيها مع تلامذتهم بمعزل مما يقع في العالم من الحوادث والخطوب يعرضون أنفسهم وتلاميذهم لخطر عظيم هو خطر مواجهة الحوادث على غير استعداد لها فضلا عن التغلب عليها . ولم يمر على رجال التربية وقت يحتاجون فيه الى أن يذكروا واجباتهم دائما ويفكروا في دقائقها في كل لحظة كالوقت الذى يعيشون فيه الآن . فهم كانوا فيما مضى مستأثرين بمقول التلاميذ وقلوبهم يكونونها كما يريدون ويصوّرونها كما يحبون تشاركونهم في ذلك الأسرة والبيئة

الاجتماعية مشاركة قليلة أو كثيرة. ولكن الأمر قد تغير الآن تغيرا تاما فالطفل والشاب لا يتأثر بدمرته وأسرته فقط ولكنه يتأق تأثيرات مختلفة من بيئات مختلفة متباينة ، من الصحف التي يقرأها والكتب التي ينظر فيها والمذياع الذي يسمع له وملاعب السينما والتسجيل التي يختلف اليها والمناظر المتباينة التي تقع تحت حسه في غدوه من البيت ورواحه اليه . وكل هذا من شأنه أن يعرض عقول النشء لكثير من الاختلاط والاضطراب ويمرض أخلاقهم لكثير من الضعف والفساد ، وهو يجعل تأثير الاستاذ في تلميذه محتاجا دائما الى الرعاية والعناية بحيث يكون قويا قادرا على مقاومة هذه المؤثرات المختلفة التي ربما كان فيها كثير من الخير ولكن فيها كثيرا من الشر أيضا ، ويغفل انى أن الواجب الأول على رجال التربية في هذه الأيام هو أن يمنوا بعقول التلاميذ وقلوبهم بحيث تصبح قوية قادرة على المقاومة من جهة ومهينة قابلة للتأثر والانتفاع من جهة أخرى وخيرة على كل حال .

سيداتي سادتي :

أرد بالطبع في هذا الحديث القصير أن أفضل مهمة التربية الحديثة في هذه الأيام ولا أن أعرضها عرضا موجزا وإنما أردت شيئا أيسر من هذا وأقرب مثلا ، ولكن له مع ذلك خطره وأهميته ، وهو أن أمس بعض المسائل التي تتصل بالتربية وما يجب عليها وما ينتظر منها في هذه الأيام لأصل الى شيء واحد هو أن العناية التي بذلت الى الآن في درس شؤون التربية ونظمها على أهميتها ايست شيئا بالقياس الى ما يجب علينا منذ الآن أن نبذل من العناية بهذه الشؤون .

وقد فرضت الحياة الحديثة على الدول والشعوب واجبات خطيرة لا سبيل الى تحقيقها إلا اذا هيئت الأجيال لها تهيئة حسنة منظمة، ولا سبيل الى ذلك إلا اذا كانت أمور التربية موضوع الملاحظة الدائمة والعناية المستمرة والنقد المتصل والتحصيص الدقيق .

سيداتي سادتي :

ليس شيء أروح لقلبي من تهنئة الشبان الذين آمنوا دراساتهم أو قطعوا أشواطا في سبيل إتمامها . وهم يستحقون التهنئة على جهودهم التي بذلوها مخلصين وكوفئوا عليها فائزين . وإن كانت لي كلمة أوجهها اليهم بعد التهنئة فهي أن يستقبلوا حياتهم العملية بأضعاف ما استقبلوا به حياتهم العلمية من القوة والعزم والمضاء . ذلك لأن دنيا العمل ليست حلوة ولا رطبة وإنما هي دنيا جد ونضال ، ولا بركة فيها إلا بالصبر والثبات على المحن ، وقديما قالوا إن المحن من أسرار التربية الإلهية . حتى إن الله تعالى ربى يوسف في السجن وابتلاه بالعبودية قبل أن يوليه على أهل مصر . والشبان لا يمكن أن ينجحوا إلا بالنية الصادقة

الغضة ؟ وهل وكلنا التعليم الأولى والابتدائي الى النساء ؟ يخيل الى أن الطفل في مرحلة تنعيم الأوتى والابتدائي يجد جفوة في التدريس وعسرا في الفهم ويعانى حياة لا تلائم حاله كل الملائمة . فهذه المرحلة من التعليم تعوزها الأركان الأساسية لدور الحضانة . تعوزها جهود المرأة وروحها ورعايتها ، ويكفى إلقاء نظرة على التعليم الابتدائي والثانوي ليظهر ضعف الفوارق بينهما في الروح والجو وظروف المكان .

فالطفل في مرحلة التعليم الابتدائي لا غنى له عن اللهو فهو من عوامل نمائه العقلي والخلقي . ومن واجبنا أن نعنى إذن بلهو الطفل حتى يعود وسيلة للتثقيف والتربية تربي فيه الذوق وحب النظافة ودقة الملاحظة وبعد النظر . وعلينا ألا نفرض اللهو عليه فرصا كالتعليم بل ندعه يقبل عليه في رغبة وشغف بيد أننا نقف منه على مربية فتجنبه اللهو الضار المفسد لشاعره وأخيلته . فهل نهضنا من ذلك بشيء ؟ هذه رياض الأطفال قائمة . وأشهد أنها محاولة موفقة ولكن ما عددها وما عدد الأطفال الذين يتفياون ظلها ؟ إنها أرستقراطية مترفة يعنى فيها بالمشرات أو المئات لا بالآلاف والملايين . . . فإذا شئنا سلاحا فلنجعل التعليم الأولى كله رياض أطفال للفقراء ولنبعد في أوضاعها عن الزخرف ، ولنجر في أنظمتها على البسط ، حتى ندنو من مستوى أولئك الأطفال فنستطيع فيما بعد النهوض بهم الى المستوى الاجتماعي اللائق .

لقد كنت أقرب عن كتب ما أعد للأطفال من معاهد فأرى معاهد التعليم الأولى تضم مليوناً من الأطفال على حين أن الذين في سن التعليم الأولى كما أعلم يقربون من ثلاثة ملايين و أكثر واذن فهناك مليونان لا يأخذون من هذا التعليم قسطهم الضروري وإني أسأل نفسى هل أعدت مدارس التعليم الأولى لتربية الطفولة ؟ وهل هى أستاذتها لهذه المهمة السامية ؟ وهل اختيرت أمكتتها صالحة وافية ؟ وهل وضعت برامجها ناضجة مجدية ؟ وأنى أرجو ألا أكون ظالماً للتعليم الأولى إذا قلت إن كثيراً من معاهده وعلى الأخص في الأقاليم محابس يحشر فيها الأطفال كرها على الرغم من ذوبهم الفقراء الى عونهم . يحشر الطفل السليم مع المريض الشاذ ، والذكى الى جانب الغبي والصغير مع الكبير فإذا قضى أولئك فترة في هذه المحابس غادروها الى محيط الجهالة والأمية ، لاندرى ماذا أفادوا ولا يدرون السبيل الى الانتفاع بما يكونون قد درسوه ؛ ثم إذا بهذا المحيط يطغى عليهم فيعودون أميين كما كانوا . . . وكثيراً ما كانت تروعننى هذه الحال تانى ما برحت أدعو الى ضرورة وضع أسس جديدة للتعليم الأولى تجعله مثمراً في الحياة لإصلاح العشر خير من افساد الجميع . وقد نبتت فكرة ترى الى أن يوكل التعليم الأولى الى النساء خاصة فهن على القيام بأغراضه أقدر ولطالما

جهزت بأن لحضانة الطفل فترة مقررة يقضيها في أحضان النساء فكيف نلقى به خلالها في يد الرجل ، فكان الجواب في محيط هذا التعليم المتناف بسقوط تأنيث التعليم الأولى .

وانترك التعليم الأولى جانباً فله رحاله الموكلون به راجين لهم التوفيق فيما يبذلونه في إصلاحه من جهود مشكورة نرجو أن تؤتي ثمرتها قريباً وننظر فيما أعدناه من مؤسسات للطفولة والأمومة . كل ما أعدناه مستوصفات قليلة العدد في بعض العواصم ومستشفيات محدودة العدد في الأقاليم لا تتسع لشعب مريض ويقوم عليها أطباء لم يتفرغوا لهذا الواجب كل التفرغ ولا يفي عددهم بالحاجة وبها عيادات خارجية لا تستطيع أن تنهض لهذا العبء . ولذلك لا يتسع الوقت ولا تتوافر الوسائل الكافية لفحص أو تشخيص ممرض مما قد يؤدي إلى إعطاء الدواء ارتجالاً إن أود مرة فقد يضربضع مرات . وهناك الحوامل من الفقيرات وأوساط الناس لا يلقين رعاية في الحمل والولادة والرضاعة ، قد يكون القليل من هذا ميسوراً في الحواضر على طبيقتنا في الإصلاح . نرفه عن المدن ونحرم الريف فلا نعطي لليد العاملة في الزراعة قسطها من الرعاية ، تلك اليد التي تعيش في الريف ولا تغادر الريف ويقوم على أكفأ ذويها صرح التروة القومية للبلاد .

فإن كنا نشد إصلاحاً فلنمن بالطفولة في الريف والحواضر ولتكن عنايتنا سابقة مبكرة ، فالطفل في حاجة إلى العناية منذ نشوئه جنيناً في بطن أمه ، وكلما نضج احتاج إلى لون من الرعاية جديد يلائم تطوره ونموه . وما دامت أغلبية الأمهات عندنا أميات لم يصلن بعد إلى لون من المعرفة ، فعلى الدولة واجب النهوض بالعبء وذلك بإنشاء مؤسسات كافية لتربية الأطفال ورعايتهم حتى نجنبهم خطر الحضانة الضارة وأثر الأم الجاحلة .

على أن اتقاذ الطفولة في مصر يحتاج إلى برنامج مرسوم معين له فترة من الزمن ينفذ خلالها ، لا يتأثر بتغير الحكم ، ولا تتبدل عنه الأحداث والمشاكل . ويجب أن يكون هذا البرنامج وليد الدراسة العميقة يقدر المال اللازم له وتعشده له قوى الأمة . ولا بد أن يكون متناولاً للطفل من مدينته ومقرسه إلى تمام نضوجه فلا تغفل أية ناحية من النواحي التي تعرض صحته للضعف وخلقه للانحلال وتربيته إلى الهوى والعبث . واني لأنادي بوجوب التفكير في هذا البرنامج وأنا أرى الأمم تجري إلى الأمام في ميدان الطفولة بسرعة الطيران فكل توقف منا يعتبر رجوعاً القهقري بسرعة الطيران كذلك ، فإذا كانت هناك بقية من أمل في الإصلاح فليكن أول ما نعتني به شؤون الطفولة .